جامع الظاهر بيبرس البندقدارى[1]

هذا جامع تثير رؤياه فى النفس ذكريات شتى ، وتبعث إلى الذهن بصور بعضها محبب إلى النفس ، وبعضها بغيض إلى القلب ، تاريخه فى الحقيقة مختصر لتاريخ مصر الإسلامية منذ أمسك بزمامها المماليك حتى اليوم .

فى بنائه الضخم ، وفى منظره الفخم مظهر لغظمة مصر فى عصر المماليك . وفى إهماله ، وتعطيل الشعائر الدينية فيه ، وبيع أنقاضه مظهر للفوضى التى ضربت بجرانها على البلاد بعد الفتح التركى . وفى جعل الفرنسيين له قلعة — كما يقول الجبرتى — وتحويل منارته إلى برج ، ووضع المدافع على أسواره ، وبناء مساكن للجند بين جدرانه ، مظهر للغزو الفرنسى [2] . وفى تحويله على

(١) الأبحاث الأثرية التى تناولت هذا الجامع بالدرس هى :

١ — Von Berchem, *Materiaux pour un Corpus Inscriptiorum Arabicorum* (Paris 1903).

٢ — Patricolo (M.A.), *Compte rendu, Service de Conservation des Monuments de l'Art Arabe*, Le Caire, 1922.

٣ — Briggs M., *Muhammedan Architecture in Egypt & Palestine, Oxford*, 1924.

٤ — Creswell (C.K.A.), *The Works of Sultan Bibars Al-Bunduqdari in Egypt, Bull. Inst. Fr. Archeo. Or. du Caire*, 1926.

٥ — Richmond, *Moslem Architecture*, London, 1926.

٦ — Hautecœur L. & Wiet G., *Les Mosquées du Caire*, Paris, 1932.

وقد استفدت بهذه الأبحاث جميعاً واستعنت بما فيها من معلومات قيمة عند قيامى بدراستى العملية لهذا الأثر وعند كتابة هذا البحث .

(٢) يقول الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة ومنارته برجاً ووضعوا على أسواره مدافع ، وأسكنوا به جماعة من العسكر ، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنه العسكر المقيمة فيه » (ص ٤٨ ج ٦ — طبعة المطبعة الأزهرية العربية سنة ١٣٠١ هـ) .

يد الإنجليز إلى مذبح [١] — حتى ليعرف اليوم بين العامة وبعض الخاصة بمذبح الإنجليز — مظهر للاحتلال الإنجليزى . وفى رد اعتباره إليه على يدى لجنة حفظ الآثار العربية مظهر يترجم عن نضوج الوعى القومى والاتجاه إلى الاهتمام بتراث الأجداد [٢] .

فلنتخذ طريقنا إليه ، نقرأ ما سطرته يد الزمن على صفحات جدرانه الباقية. إننا الآن بين يدى مدخله الرئيسى ، إنه أشبه بمدخل المدن منه بمدخل المساجد، يذكرنا منظره بأبواب القاهرة الفاطمية : باب زويلة وباب العز وباب الإقبال [٣] وهو بارز مثلها عن سمت الجدار ، ويفضى مثلها إلى ممر معقود ينتهى إلى باب المسجد .

والتأمل فى هذا المدخل ، والمقارنة بينه وبين ما سبقه من مداخل المساجد يشعرنا بالتطور العظيم الذى تدرج فيه فن العمارة الإسلامية فى مصر ، ويبين لنا فى جلاء مبلغ ما وصل إليه أجدادنا المسلمون فى هذه الناحية ، ويكفى لكى يلمس الإنسان هذا التطور أن يستحضر فى ذهنه صورة أبواب مسجد ابن طولون التى تتجلى فيها البساطة ، ثم صور المداخل الفخمة لمساجد الحاكم والأقمر والصالح طلائع ويقارن بين هذه جميعاً وبين المدخل الرئيسى لجامع الظاهر الذى يتكون من عقد كبير مدبب ، متعدد الفصوص ، كان يعتمد على عمودين ذهب بهما الزمن ، ويحف به من الخارج إطار مملوء بالزخرفة ، ويزينه من أعلى ثلاثة

---

(١) اتخذ الفرنسيون — أثناء احتلالهم لمصر — من هذا الجامع مكاناً لذبح ما يأكلونه من الحيوان وقد سار على نهجهم الانجليز — عند ما احتلوا البلاد — راجع ص ٤٧ من

Patricolo (M.A.), *Compte Rendu, service de Conservation des Monuments de l'art Arabe*, Le Caire, 1922.

(٢) Patricolo (M.A.), *Compte Rendu, Service de Conservation des Monuments de l'art Arabe*, Le Caire, 1922, p. 48.

(٣) اشتهر البابان الأخيران بين الناس باسم باب النصر وباب الفتوح ، ولكن الكتابات التاريخية المحفورة فوق أحدهما وبجوار الآخر تعطى باب النصر اسم « باب العز » ، وباب الفتوح اسم « باب الاقبال » راجع :

١ — سجل الكتابات العربية الجزء الرابع النص رقم ١٥٠٧ .

Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, Le Caire depuis 1931, IV, No. 1507.

٢ — Wiet G., *Nouvelles Inscriptions Fatimides*, Extrait du *Bull, Inst. d'Egypte*, t. XXIV, 1941.

مناطق على شكل نجوم بها عبارة « الملك لله » . ويحيط بهذا العقد من أعلى ومن أسفل أربعة تجويفات : اثنان فى كل جانب ، العلويان ينتهيان من أعلى بزخرفة محارية يعلوها عقد مدبب ، والسفليان ينتهيان من أعلى بمقرنصات جميلة . والمقرنص (١) من العناصر ذات الشأن فى العمارة الإسلامية ، يتجلى فى أبسط صوره فى الكوى التى تقام فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة الحجم عند ما يراد تسقيفها بالقبة كى يتمكن البناء بواسطة هذه الكوى من إيجاد سطح يمكن للقبة أن تستقر عليه . وليست هذه الوسيلة من اختراع المسلمين ، ولكنهم ورثوها عن الأمم الشرقية السابقة عليهم ، على أنهم لم يستطيعوا الصبر طويلا على سذاجتها ، فما كادت تتهذب ملكتهم الفنية حتى أخذوا يعدلون فيها ، ويعقدون فى شكلها ، فقسموا الكوة الواحدة إلى كوى صغيرة متعددة حتى بدت قطعاً من الفن الجميل كلما تأملت فيها غمرتك بلذة روحية ، وشاء لهم خصبهم الفنى أن لا يقفوا عند حد استعمالها فى جوانب القباب بل تراهم يزينون بها الواجهات وعقود الأبواب

والجانبان البارزان من هذا المدخل يزدان كل منهما بتجويفات ثلاثة ، يتوجها من أعلى عقود مدببة ، وقد نثرت على الجدار فوق هذه التجويفات جامات ، بعضها مستدير وبعضها معين ، وكلها مملوءة بزخارف عربية غاية فى الإبداع . والممر المعقود الذى يفصل بين هذا المدخل وبين الجامع به على اليمين وعلى اليسار مشكاة (٢) يتوجها زخرفة كأنها الخط الكوفى المربع . أما الباب نفسه فعتبته قد بنيت من قطع من الرخام أو الحجر الأصفر أو على حد التعبير الفنى من صنج تفنن البنّاء فى قطعها وتعشيقها بحيث تبدو كأنها قطعة واحدة يتخللها زخرفة جميلة (٣) . وأعلى هذا العتب لوحة من الرخام عليها كتابة نصها :

---

(١) راجع مادة Mukarnus فى Encyclopedic de l'Islam, Supl. Livraisom

(٢) المشكاة هى كوة ليست بنافذة (انظر الإفصاح فى فقه اللغة ص ٢٧٤) .

(٣) تسمى هذه القطع أو الصنج باسم Joggled Vousoires

وهذه الظاهرة المعمارية سابقة فى وجودها على الإسلام ، فقد ظهرت فى أيام البطالمة فى مصر فى مقابر كوم أبو بلد بالدلتا ، وكانت منتشرة كذلك فى بلاد الشام قبل الإسلام. أما بعد الإسلام فقد استخدمت لأول مرة فى قصر الحير الذى بناه فى بادية الشام الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك عام خمسة عشر ومائة بعد الهجرة ثم ذاع استعمالها بعد ذلك واستعملت لأول مرة فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى فى الجامع الأقمر — راجع

Creswell (C.K.A.) *Early Muslim Architecture*, Part. I, pp. 343-345.

« بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين صاحب القبلتين الآمر ببيعة الخليفتين خادم الحرمين الشريفين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة » .

وتلخص لنا هذه اللوحة التأسيسية تاريخ الظاهر بيبرس منشئ هذا الجامع بل هى توضح لنا على الأصح ، تاريخ ذلك العصر الذى شيد مسجده فيه ، لأن كل عبارة من عباراتها بمثابة فصل فى تاريخ مصر ، فلنقف عندها قليلا نستوضح هذه العبارات ما تحمله وراءها من المعانى ليستقيم فى أذهاننا مرماها ، ويتجلى لنا على هديها مركز مصر من التاريخ العام فى ذلك العصر .

أما « السلطان » فلقب ظهر لأول مرة فى عهد الخليفة العباسى هرون الرشيد إذ خلعه على وزيره خالد بن برمك تعظيما له ، ثم اختفى هذا اللقب فترة من الزمن ليظهر من جديد فى عصر بنى بويه إذ تلقب به ملوكهم ثم ذاع استعماله بعد ذلك (١) .

وأما « الملك » فكان يلقب به — على حد قول القلقشندى — الزعيم الأعظم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة (٢) .

وكلا اللقبان قد ظهرا وشاعا فى البلاد الإسلامية عند ما ضعفت الدولة ، وغلب الخلفاء العباسيون على أمورهم وصارت شئون الدولة بأيدى وزرائهم من الفرس والترك .

و « الظاهر » هو اللقب الذى اتخذه بيبرس لنفسه عند ما تولى عرش مصر (٣) .

---

(١) القلقشندى — صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤٧ — طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) كان أول لقب اختاره بيبرس لنفسه عند ما أصبح سلطاناً لمصر هو « القاهر» ولكن أشير عليه بتغيير هذا اللقب لأنه « ما تلقب به أحد فأفلح » فاتخذ لنفسه لقب الظاهر — راجع المقريزى — السلوك لمعرفة دول الملوك — ص ٤٣٧ من الجزء الأول (القسم الثانى) — نشر حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك — القاهرة سنة ١٩٣٦ .

وتاريخ بيبرس نفسه قبل ولايته على مصر جدير بالعناية ، فهو تاريخ حافل تشع من بين سطوره آيات المجد الحربى إذ ساهم فى طرد الصليبيين من البلاد ، وعاون على أخذ قائدهم لويس التاسع ملك الفرنسيين مع حاشيته إلى المنصورة أسرى مكبلين بالأصفاد حيث ذاقوا مرارة الذل ، ولم ترد إليهم حريتهم حتى دفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وكأنما شاءت الأقدار أن يمحو الفرنسيون على يدى نابليون — أثر هذه الهزيمة باتخاذهم هذا الجامع العظيم الذى أنشأه بيبرس حامل لواء النصر عليهم قلعة عسكروا فيها كما أشرنا إلى ذلك من قبل وأرسلوا منها على المصريين نيران مدافعهم .

و « سلطان الإسلام والمسلمين » لقب جديد ظهر بعد أن هوت الخلافة عن بغداد حين هاجمها هولاكو وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله وقتل معه أهله وأكابر دولته . وهو لقب يشعر باعتقاد المسلمين فى ضرورة وجود رئيس لهم يرعى شئونهم ويرجع إليه للفصل فى أمورهم . ولما كانت الخلافة قد قضى عليها التتار فلا بد من وجود شخص يحمى الإسلام والمسلمين إلى أن تقوم الخلافة من جديد وهكذا اتخذ بيبرس لنفسه هذا اللقب ، وفى الحق أنه اتخذه عن جدارة فقد كان أقوى ملوك المسلمين فى عصره .

أما عبارتا « صاحب القبلتين » و « خادم الحرمين الشريفين » فليس فى معناهما غموض ، فالمقصود بالقبلتين : مكة وبيت المقدس ، وبالحرمين : المكى والمدنى . ولقد عنى بيبرس بشئون هذه البلاد المقدسة عناية كبيرة [1] ، وبسط عليها نفوذه وسيادته ، وزارها وأفاض النعم على حراس بقاعها المقدسة ، ودعى له على منابرها [2] .

---

(١) فى سنة تسع وخمسين وستمائة جهز الأموال والأصناف لعمارة الحرم النبوى بالمدينة وبعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس .

وفى سنة إحدى وستين وستمائة جهز فى البحر جماعة من البنائين والنجارين والنشارين والعتالين وعدة أخشاب وغيرها من الآلات برسم عمارة الحرم النبوى الشريف .

(ص ٤١٥ و ص ٥٠٢ من السلوك للمقريزى — ج ١ (قسم ٢) نشر الأستاذ الدكتور زيادة بك) .

(٢) ص ٤٩٨ من السلوك للمقريزى — ج ١ (قسم ٢) نشر الأستاذ الدكتور زيادة بك .

وإذا كان من اليسير فهم العبارتين سالفتى الذكر فإن عبارتى « الآمر ببيعة الخليفتين » و « قسيم أمير المؤمنين » تفتقران إلى شىء من الإيضاح . فلم يكن القضاء على الخلافة الإسلامية مما يسكت عليه المسلمون طويلا أو يسلمون فيه بالأمر الواقع إذ لا تزال نفوسهم متعلقة بأهدابها ، يرون أن تنصيب الخليفة واجب إذا تركوه أثموا فى حق الدين . والحكام منهم على الخصوص فقدوا بفقدها قوة أدبية عظيمة كانوا يستمدون منها العون على تثبيت أقدامهم على العروش التى اغتصبوها ، لذلك ما فتئوا يفكرون فى إحيائها ، وخطا بيبرس الخطوة الأولى الجريئة فى سبيل ذلك فاستقدم أحد فلول العباسيين واستقبله فى مصر استقبالا حافلا ، وسار فى ركابه هو وأمراء مملكته ، وبايعه وأمر رجاله ببيعته ، وأحيا له عرش الخلافة الإسلامية من جديد وأجلسه عليه باسم « المستنصر » . ولكن ما كاد يمضى على ذلك شهور ثلاثة حتى حل الشك فى قلب الظاهر وخشى على نفوذه أن يقل أو يضيع بجوار هذا الخليفة الذى أقامه فى البلاد فصمم على التخلص منه بظرف ولباقة ، فجهز له جيشاً يعاونه على استرداد عرش الخلافة فى بغداد ولكنه دبر فى الخفاء أمر التخلص من هذا الخليفة إذ تخلى عنه الجيش فى الطريق ، وخرج التتار على المستنصر وقتلوه وقتلوا كل من كان معه إلا واحداً وفد على مصر ، وعاودت الظاهر فكرة إحياء الخلافة مرة ثانية فاستقبل هذا العباسى وبايعه بيبرس بالخلافة كما بايع المستنصر من قبل ، وأمر رجاله بمبايعته ، كما أمرهم بمبايعة سلفه ، فهو إذن الآمر ببيعة الخليفتين . وقد اتخذ الخليفة الأخير لقب « الحاكم بأمر الله » .

وقد كان بيبرس حذراً هذه المرة فحرم على الخليفة التدخل فى شئون الدولة ، وأقامه فى القلعة كالسجين يحصى عليه حركاته وسكناته ولا يسمح له بالظهور إلا بأمره وتحت رقابته . وستر هذه الحقيقة عن الشعب بتلك العبارة التى يشير فيها إلى أنه « قسيم أمير المؤمنين[١] » ، وما كان أمير المؤمنين فى الحقيقة إلا دمية يحركها بيبرس وفق إرادته . وفى الحق أن مركز الخلافة العباسية قد أخذ منذ ذلك الوقت يفقد تلك المكانة السامية التى كان يتمتع بها من قبل ، ولم تعد له تلك

---

(١) Von Berchem, *Materiaux pour un Corpus Inscriptiorum Arabicorum*, p. 104.

الهالة التى كانت تحيط به . وظلت مكانته تتضاءل فى النفوس حتى انتهت بأن « رحل اسم الخليفة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها (١) » ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض أمراء المسلمين فى غير مصر كانوا يرون فى الخلافة العباسية فى القاهرة فائدة كبيرة لأنها تمنحهم ألقاباً يسترون بها اغتصابهم لمراكزهم ، فمؤسس الأسرة المظفرية فى جنوب فارس خرج عن طاعة رئيسه المغولى وبايع الخليفة العباسى فى مصر وكان يذكر اسمه فى الخطبة . كذلك سلاطين دلهى فى الهند ، وسلاطين ما وراء النهر .

وآخر ما يستحق الذكر فى هذه اللوحة التأسيسية كلمة « الصالحى » . وهذا اللفظ على صغره يكشف لنا عن أصل المماليك ، فالصالحى نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب أحد سلاطين الدولة الأيوبية ، ونسبة بيبرس إليه معناها أنه كان من مماليكه . والمماليك رقيق كان يحصل عليه بالأسر أو الشراء ، وقد كان الخلفاء العباسيون أول من استن هذه السنة ونسج على منوالهم أمراء المسلمين وسلاطينهم ، فاستعانوا بهم فى الحرب وزينوا بهم قصورهم فى السلم ، فابن طولون قوى بهم جيشه ، والإخشيد اعتمد عليهم فى حروبه ، والفاطميون أكثروا من شرائهم ، والأيوبيون بالغوا فى الاستكثار منهم لا سيما الصالح نجم الدين أيوب وكان بيبرس أحد مماليكه هؤلاء(٢) .

* * *

والآن بعد هذا الاستعراض الموجز للعصر الذى انشىء فيه هذا الجامع ، وبعد الوقوف فى جولة قصيرة بين ما بقى لنا من جدرانه ، ندور حوله من الخارج ثم ننفذ إلى داخله لنقف على خصائصه ومميزاته . وأول ما يقابلنا هذا البرج المربع القائم فى الزاوية الشمالية الغربية ، الذى تنيره نوافذ ثمان ذات أسقف مقوسة ،

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة — ص ٣٢٥ — المطبعة المنيرية ١٣٥١ ﻫ . راجع أيضاً :

Arnold (Sir Thomas), *The Caliphate* I, London, 1924 pp. 99. ff.

(٢) سمى بيبرس باسم البندقدارى لأنه كان أول أمره مملوكاً للأمير ايدكين البندقدارى قبل أن يصبح من مماليك الصالح نجم الدين أيوب . والبندقدارى نسبة إلى البندقدار وهو لفظ فارسى معرب معناه حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير (راجع المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك ص ٣٥٠ ج ١ (قسم ٢) نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك .

وهذه إحدى خصائص العمارة الإسلامية أيام بدر الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله .

وتنطوى جوانح هذا البرج على درج يفضى إلى سطح الجامع ، وله نظائر ثلاث كل واحدة منها تحتل زاوية من زوايا الجامع الأخرى ، وهى تشبهه فى المظهر الخارجى وتختلف عنه فى الحجم والتصميم ، فهى فى الداخل صماء ، وفى المساحة أقل سعة إذا استثنينا البرج القائم فى الزاوية الشمالية الشرقية فهو يقرب فى مساحته من البرج الشمالى الغربى .

* * *

وتبرز فى الجدارين الشرقى والغربى للجامع دعامات ، بعضها مشطوف من أعلى وبعضها غير مشطوف ، والدعامات المشطوفة ظاهرة معمارية جديدة على العمارة المصرية الإسلامية تبدو هنا لأول مرة ، وظهورها فى بلد قليل الأمطار — كمصر — يشعر بأنها أجنبية وفدت على البلاد من الخارج ، لأنها من خصائص البلاد الكثيرة الأمطار ومصر ليست كذلك . ويغلب على الظن أنها بنيت هنا بواسطة الصليبيين من الذين وقعوا أسرى بين يدى بيبرس فى حروبه فى بلاد الشام (١) .

وتبدو لنا فى هذه الدعامات — فى المدماك الثالث تحت النوافذ — نهايات أعمدة ممتدة فى اتجاه أفقى فى عرض الحائط . ترى ما وظيفة هذه الأعمدة العرضية ؟ وما هو مصدرها ؟ وهل هى من مبتكرات المسلمين أم نقلوها عن غيرهم من الأمم ؟

أما وظيفتها فهى ربط أجزاء الجدار بعضها ببعض بقصد تقويتها وتوثيقها . وأما مصدرها فبلاد الشام . وأما مبتكروها فهم العرب إذ يحدثنا المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » أنه عند إنشاء مدينة عكا أتى بفلق الجميز الغليظة فصفت على وجه الماء ثم بنى فوقها بالحجارة ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء . ومبتكر هذه الطريقة هو أبو بكر البناء كما يقول المقدسى الجغرافى العظيم (٢) . ولقد ظهرت هذه الطريقة لأول مرة فى مصر فى أبواب

---

(١) Creswell (C.K.A.), *The Works of Sultan Bibars Al Bunduqdari in Egypt*, *Bull. Inst. Archeol. Or. du Caire*, 1926.

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (الجزء الثانى من المكتبة الجغرافية) ص ١٦٢ و ص ١٦٣ (طبعة ليدن)

القاهرة ثم جامع الصالح طلائع آخر المساجد الفاطمية، ثم في هذا المسجد الذى نتحدث عنه .

ويتوسط الجداران الشرقى والغربى مدخلان عظيمان يتشابهان والمدخل الرئيسى فى التخطيط العام ويختلفان عنه قليلا فى الحجم وبعض العناصر الزخرفية .

أما المدخل الغربى فتتكون واجهته من عقد كبير يحف به من أسفل تجويف فى كل جانب ينتهى من أعلى بزخرفة محارية يعلوها مقرنصات جميلة . وفوق هذه المقرنصات منطقة مستديرة يزينها من الداخل آيات من القرآن الكريم نقرأ منها فى اليمين : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال » ونقرأ فى المنطقة اليسرى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .

ويعلو كل منطقة معين به زخرفة عربية محفورة فى الحجر غاية فى الإبداع . ويفضى هذا المدخل إلى باب المسجد نفسه الذى تتكون عتبته من مزررات قد قطعت على شكل شرفات وضعت بجوار بعضها ، واحدة قائمة والثانية مقلوبة بالتناوب ، وقد اتخذت هذه المزررات من حجرين مختلفى اللون . ويعلو ذلك وتر العقد الذى يعلو هذا الباب وهو يزدان بسطر من الكتابة الكوفية الجميلة نقرأ فيه : [تبار] ك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل [لك قصوراً] . ويعلو هذا الوتر لوحة رخامية عليها ستة أسطر من الكتابة الكوفية نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك تقرباً إلى الله العظيم وإظهاراً لقوة الدين القويم مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه »

وأما المدخل الشرقى فيتكون من عقد كبير يحف بفتحته خطان منكسران متوازيان يحيط بهما من الخارج شريط من الزخرفة ، وفى خاصرتى العقد جاماتان مستديرتان بهما زخرفة عربية متقنة . وعلى جانبى المدخل من أسفل مشكاتان يتوجهما مقرنصات بديعة . ويفضى هذا المدخل إلى باب المسجد نفسه الذى يعلوه عتب مكون من مزررات من حجارة متداخلة بشكل جميل . وأعلى هذا العتب عقد مسدود يحف به من جميع نواحيه آيات من القرآن الكريم ويتوسطه لوح من الرخام عليه كتابة نسخية نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أعز الإسلام وجنده وانصره نصراً لا غلبة بعده ببقاء الآمر بعمارة هذا الجامع المبارك مولانا وسيدنا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة » .

وقبل أن ننفذ إلى داخل المسجد نلاحظ فى جدرانه ظاهرة جديدة جديرة بالعناية ، هى تلك الأشرطة الصفراء والحمراء المتعاقبة المتوازية التى تجرى على واجهة الجامع من الخارج والتى بهتت ألوانها فى مواضع كثيرة بفعل العوامل الجوية ولكنها لا تزال واضحة فى بعض المواقع .

وفى الحق أن هذه الظاهرة المعمارية التى تبدو فى مصر لأول مرة فى هذا الأثر قد لعبت فى العمارة الإسلامية دوراً هاماً حتى لقد كادت أن تصبح علماً عليها ، وهى لذلك جديرة بأن نقف عندها قليلا محاولين البحث عن أصلها . فلقد أشار كازانوفا فى بحثه القيم عن قلعة القاهرة إلى نص ورد فى مخطوط لشهاب الدين يصف فيه قصراً بناه بيبرس فى مدينة دمشق جاء فيه ، « القصر الأبلق بناه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى ، وظاهر من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر مدماكاً من هذا ومدماكاً من هذا بتأليف غريب وإحكام عجيب (١) »

وينطبق هذا الوصف على واجهة جامع الظاهر بيبرس الذى نحن بصدده مع اختلاف بسيط هو استعمال اللون الأحمر بدلا من الأسود .ولعل فى توفر حجر البازلت الأسود فى بلاد الشام وتوفر الحجر الجيرى الذى تحيل العوامل الجوية لونه إلى الاصفرار فى تلك البلاد أيضاً ما نستطيع معه أن نفسر ظهور هذه الظاهرة المعمارية فى بلاد الشام قبل ظهورها فى مصر . وعند ما ظهرت فى مصر استبدل الحجر الأسود فيها بالحجر الأحمر الذى يتوفر وجوده .

هذا وقد كان يتوج جدرانه شرفات على شكل أسنان المنشار وصل إلينا القليل منها . أما نوافذه فعدتها اثنتان وسبعون فى كل جانب من جوانبه ثمانى عشرة ،

---

(١) P. Casanova, *La Citadelle du Caire* (*Mem. de la Mis. Archeol. fr, du Caire*, t.VI, pp. 638-639).

ولهذه النوافذ شبابيك من الخارج ومن الداخل مصنوعة من الجص ذات زخرفة غاية فى الجمال .

* * *

والآن فلندخل الجامع من ذلك الباب الصغير المفتوح فى الجدار القبلى والذى يوصلنا مباشرة إلى رواق المحراب الذى يتكون من ست بلاطات لتجرى عقودها فى موازاة جدار القبلة وتعتمد هذه العقود على صفوف من الأعمدة إلا الصفين الثالث والسادس فعقودهما تعتمد على أكتاف . ويتوسط هذا الرواق أمام المحراب قبة عظيمة فى حجم قبة الإمام الشافعى كما يقول المقريزى[١]. ويتوسط هذا الرواق مجاز[٢] متسع عن باقى المجازات المجاورة له وممتد من المدخل الرئيسى حتى المحراب الذى هو اليوم عاطل من الزخرفة [٣] والذى يتوجه لوح من الرخام الأبيض يتضمن كتابة نسخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين فى سنة ستمائة وستين » .

ولا بد أن سقف هذا المجاز كان مرتفعاً عن سقف المسجد نفسه — كما هو الحال فى جامعى الأزهر والحاكم — لأننا نلاحظ وجود قطعة من الزخرفة الجصية فى أعلى الواجهة الداخلية للمدخل الرئيسى . ويجرى على الجدارين القبلى والشرقى فى هذا الرواق طراز من الكتابة الكوفية الجميلة يسير أفقياً ثم يدور حول النوافذ كيفما دارت وهو يتضمن آيات من القرآن الكريم من سورة الأنعام ، ويوجد أسفل

---

(١) يقول المقريزى فى خططه ج ٢ ص ٣٠٠ من طبعة بولاق – « ورسم بين يديه هيئة الجامع وأشار بأن يكون بابه مثل المدرسة الظاهرية وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الشافعى رحمة الله عليه » .

(٢) راجع نشأة هذا العنصر المعمارى ومصدره فى كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لكاتب هذا البحث (ص ٥٦ و ٥٧) .

(٣) كان هذا المحراب مكسوا بالرخام وكانت هناك مقصورة من الخشب تحيط به . وهذا الرخام وذلك الخشب أخذهما السلطان بيبرس من قلعة يافا بعد أن « هدمها كلها وجمع أخشابها ورخامها وحمله فى البحر إلى القاهرة فعمل من الخشب مقصورة الجامع الظاهرى بالحسينية ومن الرخام محرابه ». راجع ص ٥٦٤ و ٥٦٥ من الجزء الأول (القسم الثانى) من كتاب السلوك للمقريزى نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك .

هذا الطراز شريط من الزخرفة العربية الجميلة محفورة فى الجص كذلك .

أما صحن هذا المسجد فقد تحول اليوم إلى حديقة عامة يؤمها الناس للترفيه عن النفس . وأما الأروقة الثلاثة الأخرى فقد ضاعت معالمها ولم يبق منها إلا أسس أعمدة أو بقايا عقود ناتئة من الجدران هى التى عاونتنا على تخيل شكل المسجد وقت إنشائه ومن هذه الصورة المرتسمة فى خيالنا نرى أنه كان يسير على نهج المساجد السابقة عليه (١) أى أنه مكون من صحن مكشوف تحيط به أروقة أربعة أكبرها رواق المحراب .

وليس هناك من شك أن مهندس جامع الظاهر بيبرس كان متأثراً إلى حد كبير بتصميم مسجد الحاكم بأمر الله فهو يشبه هذا الجامع فى مظهره الخارجى وفى تخطيطه الداخلى مع فروق بسيطة يسهل التعرف عليها .

* * *

هذه صورة مجملة لهذا الجامع العظيم الذى شيده عظيم من عظماء مصر ، فهل يتيح الله له عظيما يرده إلى الحياة كما كان ويحيى لنا بتجديد هذا الأثر ذكرى مؤسسه ؟

محمد عبد العزيز مرزوق

---

(١) راجع تصميم مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم والأقمر والصالح طلائع فى كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لكاتب هذا البحث .